

قصة

قصيرة



رجع الصدى

حين تلفت ورائي، قبل أن أميل
في الدرجات المفضية إلى قلب
القصة. بدت لي الجزائر مدينة
فوق جبل. البيوت المتراسة
بعضها فوق بعض، تفصلها
شوارع ملتوية، واسعة وضيقة،
والميناء في أسفل يمتلئ
بالبواخر الضخمة، والأرصقة
والمخازن والحاويات..
تذكرت قول محمدي بأن ألزم
اليمن في كل الشوارع التي
تقابلني. تحسست المظروف
الصغير داخل جيب المعطف.
أعددت نفسي لإجابة السؤال:
أين محمدي الآن؟
ومضت ابتسامة بالكلمة التي
يهتز بها رأسه: باهي... اختلطت
بمشاهد مختلطة ومتشابكة في
البيجال والشانزلزيه
والكونكورد والمونمارتر وعلى
نهر السين وأماكن أخرى تغيب
ملاحمها..

- مبلغ بسيط.. الحياة - كما تعرف - لم
تعد كما كانت..
فكرت - لتعدد الطرق وتقابلها وتشابكها -
أن أعود من حيث بدأت، ثم قررت أن ألقى
بنفسي في الماتهة، أسأل عن العنوان، حتى
أعثر عليه..
مع توقعي للزحام، فقد ضقت بالتصاق
الأجسام في صعودي على الدرجات التي
تعلو بين البيوت. ظلت السلالم المتعرجة
تصعد بي إلى أعلى، لا نهاية أراها. البيوت
أمامي وحولي، بيوت من طابق أو طابقين،
بيضاء بشرفات زرقاء، كأنها - بنظرة غير
متأملة - وضعت فوق بعضها. تذكرت قول

قلت له وأنا أتأمل المسلة المصرية في ميدان
الكونكورد:
- هل تريد شيئاً من الجزائر؟
أضفت لدهشته المتسائلة:
- سأمر بها في مهمة سريعة، قبل عودتي
إلى القاهرة..
لاحظت ارتجافة في عينيه:
- ربما أرسلت معك مبلغاً إلى أمي..
ثم وهويك بإصبعه أرنية أنفه:
- تعرف حي القصبة؟
- هل هو في العاصمة؟
- أشهر أحيائها..
ورسم على شفثيه ابتسامة هادئة:

قصة: محمد جبريل

فلوبير عند رؤيته للقصبة: شلة خيوط متشابكة لكثرة ما فيها من شوارع وأزقة ضيقة ومتقاطعة، وثمة نساء يرتدين الحاكي، ملاء بيضاء واسعة تلف الجسم كله، ويغطين الوجوه بالحجاب..

كان معظم نزلاء الفندق من العمال العاطلين، جزائريون ومغاربة وتونسيون. تبينت أني المصري الوحيد بين العشرات القادمين من الشمال الإفريقي.. لم أتبن ملامحه في البداية. اكتفيت بالرد على سلامه، وبدأت في نزع ثيابي للتخلص من تعب السفر..

صحت على ارتفاع صوته. كان قد تربح على سجادة صلاة، وعلا صوته بما تصورته تراثيل صوفية: الله يريدني وأنا أريده.. ستتكشف الحقيقة.. إنه يرفع الحجاب ببني وبينه..

تأملته: في حوالي الخامسة والثلاثين، أقرب إلى الطول، وإن عانى جسمه الهزال بصورة واضحة. مفلفل الشعر. له عينان غسليتان زاد من عمق التماعها ظل الرموش الطويلة. انسدل شاربه على شفته العليا، وجانبني فمه. على خده الأيمن خيط أسود طولي، خمنت أنه من تأثير عملية - يرتدي جلابية بيضاء، لها فتحة في الصدر، تبرز منها سترة داخلية متأكلة الأطراف..

قال وهو يطوي السجادة:

- كنت متعبا..

أطرقت لحظات:

- لم أنم منذ الأمس..

فاجأني بالقول:

- أنت مهاجر من بلدك.. وأنا مثلك.. وكلانا مهاجر إلى الله..

غالبت الارتباك:

- زيارتي لباريس عشرة أيام.. أنجز عملا ثم أعود إلى القاهرة..

- وما عملك.. مهنتك؟

وأنا أتأمل مداعبة أصابعه لحبات المسبحة:

- صحفي.. لكنني أريد تسجيل رسالة دكتوراه في السوربون..

صحبني إلى مسجد عمر بساحة كورون. الباعة الجائلون يصفون بضاعتهم على الأرض: تماثم وأحجية وأساور تحمل اسم الله والرسول، وقراطيس من البخور والصندل

والعنبر الرمادي والأعشاب الطبية، وكتب تفسير، وقصص أولياء الله الصالحين. بدت لي الصلاة مختلفة عما اعتدته في مسجد أبي العباس والحسين والسيدة زينب والأزهر، الخشوع المطلق، الإصغاء لكلمات الإمام، الدخول في السكون، إغماض العين، الترتيل الجماعي: يا وحيد.. يا كريم.. يا رحمن.. أطلق المصلون لحاهم، وارتدوا الجلابيب البيضاء، دعا الإمام: هيا باسم الله، فتناولوا الطعام جماعة في صحن المسجد.

لم أكن أتصور هذا الضيق في الشوارع والأزقة، ولا هذا الزحام في البشر.. هل يمكن لأحد أن يهمس أو يقول سرا؟ قال ضاحكا:

- ماذا تفعل في البيجال؟

وأوما بعيني إلى الدنيا الصاخبة من حولنا: دكاكين الملابس الجاهزة، ومنتجات الكهرباء، والباعة الواقفين، ينادون على بضاعتهم بلهجات عربية، والمساومات، والمشايدات، والشتائم، وزوايا المتعة، ومطاعم المأكولات العربية..

قلت وأنا أشير إلى مسجد الفتح القريب:

- بيجال للمؤمنين أيضا..

وأردفت في صوت متلكئ:

- أتيت لصلاة الجمعة!

قال وهو يشيح بوجهه عن ثلاث فتيات، استندن إلى جدار بيت، وارتدين سراويل جينز ضيقة، وبلوزات شفافة:

- من الصعب أن يكون المرء مسلما في بلد كهذا!

قال وهو يسبقني إلى شباك التذاكر في محطة المترو السريع بسان ميشيل:

- أنا الآن أعمل في مزرعة تبعد عن باريس عشرين كيلو مترا..

قلت:

- أعرف أنك متخصص في الإلكترونيات..

- لم يعد العمل متاحا.. وأعاني المطاردة في كل وقت..

انعكس سؤالي ارتجافة في عيني:

- لماذا يطاردونك؟

مط شفته السفلى، وقال:

- ربما لأنني أصلي كل الأوقات في المسجد..

- وأنا أصلي في المسجد..

- يعلمون أنك زائر.. أما أنا فمقيم..

- من هم؟

وشى تهدج صوته بانفعاله:

- هذا مجتمع تحيا فيه كل النزعات!

قلت وأنا أصفحه:

- ربما نلتقي ثانية في أحد مساجد باريس..

فاضت عيناه بالود:

- باهي..!

واستطرد بلهجة مشفقة:

- باريس بها أكثر من ١٥٠ مسجدا وزاوية..

ثم هز رأسه في حسم:

- سنلتقي إن شاء الله.

والتقينا

رأيت يتأمل فاترينات المكتبات في سان جرمان، كان يرتدي سترة بيضاء بنصف كم، وبنطلون جينز، وصدلا متقاطع السيور..

قلت وأنا أصفحه:

- توقعت أن نلتقي في مسجد..

تنهد:

- لا عمل!

ثم وهو يجاهد لكتم انفعاله:

- حرم الفرنسيون علينا العمل في الشركات والمصانع..

وضغط بإصبعين على جانبي جبهته، وأغمض عينيه:

- حكم علينا بالبطالة..

انشغل تصوري بما رواه عن الحياة في معامل عصر العنب. يغادر باريس كل صباح، ويعود في المساء. قال له إمام مسجد عمر: حاذر من أن تكون مشاركا في صناعة الخمر! في الصباح بدل خطواته إلى قلب المدينة..

ابتسم لتراجعي بأعلى ظهري. فاجأني اقتراب الشاب ذي الملامح المغربية، وضع تحت عيني خاتما ذهبي اللون، وقال بالعربي:

- هذا خاتم أثري..

واجهت الملاحظة بنظرة غاضبة، فمال